إيران بين الاعتراف بالهزيمة... والانتحار

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

للمرّة الأولى منذ العام 1979، هناك ترجمة أميركية على الأرض لما هو معروف في واشنطن عن إيران. من هذا المنطلق، تبدو عملية تصفية الجنرال قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري"، الذي يلعب دورا أهم بكثير من قائد "الحرس الثوري"، حدثا استثنائيا لا بدّ من أن تكون له انعكاساته على صعيد المنطقة كلّها، بما في ذلك دول الخليج العربي. ستكون للحدث أيضا انعكاساته من بيروت إلى دمشق، إلى بغداد... إلى طهران نفسها، مرورا بالطبع بصنعاء التي تحولت بدورها، بفضل الحوثيين، إلى رهينة من الرهائن التي تحتفظ بها "الجمهورية الإسلامية".

إيران لن تستطيع التكيّف مع سياسة أميركية جديدة في أساسها العقوبات الاقتصادية والضربات المباشرة التي تستهدف مناطق حساسة تابعة لها ولميليشياتها إن في العراق وإن في سوريا. من الواضح أن هذه السياسة ليست سياسة دونالد ترامب وحده

منذ احتجاز دبلوماسيي السفارة الأميركية في طهران، في تشرين الثاني – نوفمبر 1979، لم يحصل أي ردّ أميركي حقيقي على إيران. مع احتجاز دبلوماسيي السفارة، لمدّة 444 يوما، بدأت تظهر الملامح الحقيقية للنظام الإيراني الجديد الذي أسس له آية الله الخميني الذي ما لبث أن استبعد كلّ من له علاقة بأيّ نوع من الفكر الليبرالي، أي بما هو حضاري من قريب أو بعيد في هذا العالم.

مع احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين أيضا، بدأ حكم "الحرس الثوري" الذي ما زال مستمرّا إلى اليوم، وهو حكم يقوم على تصدير الأزمات الداخلية لإيران إلى خارج حدودها تحت شعار "تصدير الثورة". إنّه شعار عانى منه كلّ بلد عربي تقريبا وتسبّب بين ما تسبّب به بحرب السنوات الثماني العراقية – الإيرانية، وهي حرب دفعت المنطقة كلّها ثمنا كبيرا لها. بل يمكن القول إنّها حرب استنفدت ثروات المنطقة وتركت النظام العراقي في حال من اللاتوازن. جعلت هذه الحال صدّام حسين يقدم على مغامرته المجنونة بنتائجها المعروفة في الكويت صيف العام 1990.

استفادت إيران الخميني إلى أبعد حدود من السياسة الأميركية المهادنة لها. لم ترد أميركا على تفجير سفارتها في بيروت في نيسان – أبريل 1983 ولم تردّ على نسف مقرّ المارينز قرب مطار العاصمة اللبنانية في تشرين الأول – أكتوبر من السنة 1983 أيضا. على العكس من ذلك، انصاعت للرغبات الإيرانية وانسحبت من لبنان وتركت أميركيين يُخطفون فيه عبر أدوات محلّية إيرانية.

إلى ما قبل دخول دونالد ترامب البيت الأبيض، كان كلّ شيء مسموحا لإيران، بما في ذلك تفجير موكب رفيق الحريري ورفاقه في شباط – فبراير 2005، مع ما تلا ذلك وسبقه من عمليات اغتيال طاولت اللبنانيين الشرفاء من سمير قصير وجبران تويني... إلى محمّد شطح، مرورا ببيار أمين الجميّل وجورج حاوي وأنطوان غانم ووليد عيدو ووسام الحسن ووسام عيد وآخرين لعبوا دورا في مجال مقاومة تحوّل لبنان إلى جرم يدور في الفلك الإيراني وبيروت إلى مدينة إيرانية على المتوسّط.

وسط كلّ هذه الأحداث التي تخللها تسليم أميركا العراق على صحن من فضّة إلى إيران في العام 2003، كان هناك غضّ طرف أميركي عن السلوك الإيراني. كان قاسم سليماني يسرح ويمرح في المنطقة. استطاع إبقاء بشّار الأسد في دمشق على الرغم من ثورة الشعب السوري عليه وعلى النظام الأقلوي القمعي الذي أسّسه والده. استطاع أيضا تحويل العراق مجرّد مستعمرة إيرانية بالاعتماد على ميليشيات مذهبية ما لبثت أن فرضت إحداها هيمنتها على لبنان وتسببت في تحويله إلى بلد مفلس وإلى أرض طاردة لأهلها.

جاء الردّ الأميركي على التحرّش الإيراني بسفارة الولايات المتحدة في بغداد لينهي حقبة في العلاقات الأميركية – الإيرانية دامت أربعين عاما. كانت تلك حقبة السكوت الأميركي عن التصرّفات الإيرانية. كان مسموحا لإيران أن تعيّن رئيس الوزراء العراقي، وأن تقلب الطاولة على الشعب السوري مستعينة بـ"حرسها الثوري" وميليشيا "حزب الله" اللبنانية وميليشيات مذهبية عراقية وأفغانية وباكستانية.

صارت إيران بعد 2016 تقرّر من هو رئيس جمهورية لبنان المسيحي وتحدّد من سيخلف سعد الحريري في موقع رئيس الوزراء. صارت تحدّد قانون الانتخابات في لبنان الذي يوفّر لـ"حزب الله" كلّ ما يريحه. فوق ذلك، لم تتردّد إيران في قصف منشآت "أرامكو" في السعودية قبل أشهر قليلة غير مكترثة بأنّ ما قامت به ليس اعتداء على المملكة فحسب، بل هو اعتداء على الاقتصاد العالمي أيضا.

جعل السكوت الأميركي من قاسم سليماني بطلا لا يقهر، خصوصا بعدما اعتبر الرئيس السابق باراك أوباما أنّ الملف النووي الإيراني يختزل كلّ مشاكل المنطقة وأزماتها وأنّ أميركا في الجيب الإيراني. في النهاية حصلت إيران في عهد أوباما، في مرحلة ما بعد توقيع الاتفاق في شأن ملفّها النووي صيف 2015 على ما يقارب 150 مليار دولار صرفتها في خدمة مشروعها التوسّعي الذي يشكل مقتل قاسم سليماني ضربة قاسية له.

صحيح أنّ "المرشد" علي خامنئي سارع إلى اختيار خليفة لقاسم سليماني هو نائبه إسماعيل قاآني، لكنّ الصحيح أيضا أنّ فراغا كبيرا تركه رجل يعرف المنطقة جيّدا. فسليماني كان الحاكم الفعلي للعراق ولسوريا (بمشاركة روسية) وللبنان ولجزء من اليمن ولغزّة حيث لديه نفوذه المباشر على "حماس".

لن تستطيع إيران التكيّف مع سياسة أميركية جديدة في أساسها العقوبات الاقتصادية والضربات المباشرة التي تستهدف مناطق حساسة تابعة لها ولميليشياتها إن في العراق وإن في سوريا. من الواضح أن هذه السياسة ليست سياسة دونالد ترامب وحده بمقدار ما أنّها تعبير عن توجّه لدى المؤسسات الأميركية، بما في ذلك المؤسسة الأمنية والعسكرية، التي ضاق ذرعها بالسلوك الإيراني. هناك أميركا العميقة، أميركا التي لا يمكن إلّا أن تنتقم ولو بعد مرور السنوات الطويلة، من قتل نحو 250 من جنودها دفعة واحدة في لبنان وكلّ مديري محطات "سي. آي. إي" في المنطقة في تفجير سفارة بيروت في العام 1983.

أكدت أميركا لإيران، عبر تصفية قاسم سليماني بالطريقة التي جرت تصفيته بها، أن هناك الثواب والعقاب وأن البطل الذي لا يقهر لا بدّ أن يقهر. استمرّت فترة السماح أربعين عاما. إنّها فترة طويلة دفعت خلالها، من دون أدنى شكّ، بلدان عربية عدّة بينها لبنان ثمنها غاليا. فبمجرّد اغتيال رفيق الحريري في 2005، فقد لبنان توازنه. قبل ذلك، سقط العراق. وبعد ذلك تفتّتت سوريا وتشظّى اليمن. لقاسم سليماني فضل كبير في كلّ ما شهدته تلك البلدان العربية من مآس. هل يعيد خروجه من المسرح الأمل؟ الكثير سيعتمد على ما إذا كانت إيران ستستعيد وعيها وتتصالح مع المنطق والواقع وتقتنع بأن مشروعها التوسعي انتهى وأن أميركا تغيّرت. لم يعد لدى إيران من خيار غير الاعتراف بهزيمتها. هذا ليس عيبا اللّهم إلّا إذا كانت تفضل سياسة الانتحار على كلّ ما عداها.

إدلب وترامب وسليماني

بهاء العوام
صحافي سوري

كم من السوريين يتمنون لو أن الولايات المتحدة الأميركية قتلت قائد فيلق القدس الإيراني قاسم سليماني قبل سنوات طويلة. ربما لم تكن معادلات الميدان في الحرب لتتغير كثيراً، ولكن من المؤكد أن أعداد القتلى والجرحى والنازحين من المحافظات التي خرجت عن سيطرة النظام كانت ستكون أقل.

عندما خرج الرئيس دونالد ترامب ليبرر قتل سليماني لم يقل إنه انتقم للسوريين. ولكن الكثير من السوريين شعروا أنه ثأرهم. احتفلوا وتبادلوا التهاني حتى أن منهم من وزع الحلوى وأقام الولائم. لم يشعروا بهذا النصر عندما قتل زعيم داعش أبوبكر البغدادي، رغم اعتقادهم بأنه كان صنيعة النظام.

قتل سليماني في الوقت الذي يقتل فيه عشرات السوريين كل يوم في إدلب بسبب آلة الحرب التي كان الجنرال الإيراني عقلاً مدبراً فيها. لم يقتل من أجلهم وإنما اغتيل من أجل جندي أميركي قتل في قاعدة عسكرية لواشنطن في العراق، بعد مهاجمتها من قبل مسلحين تابعين لإيران، وفقا للرواية الأميركية.

احترق سليماني بصواريخ أميركية ليس لأن ميليشياته في سوريا تحاصر أبواب إدلب بالنار والحديد. وإنما لأن ميليشياته في العراق حاولت اقتحام السفارة الأميركية في بغداد. لم ينزح من السفارة سوى السفير وبعض الموظفين، ولكن نزح عشرات الآلاف من إدلب خلال الأشهر القليلة الماضية.

قتل سليماني كان من الأشياء التي يمكن أن تساعد بها الولايات المتحدة السوريين منذ سنوات. إصدار قانون قيصر قبل سنوات كان يمكن أن يساعد أيضاً. بناء قواعد لها غرب الفرات كما في شرقه كان يمكن أن يفيد كذلك. والأفضل من كل هذا كان إسقاط النظام أو الانسحاب تماماً من سوريا.

تتربع الولايات المتحدة اليوم على رأس قائمة المنافقين في حماية السوريين. وحدها كانت ولا تزال تستطيع وقف الحرب في إدلب، ولكنها تفضل انتظار ما ستنتهي إليه اتفاقات روسيا وتركيا. لا يهم كم يمتد الانتظار، وكم يموت وينزح من السوريين فيه، المهم ألّا يخسر الرئيس الأميركي المال هناك.

قتل سليماني في الوقت الذي يقتل فيه عشرات السوريين كل يوم في إدلب بسبب آلة الحرب التي كان الجنرال الإيراني عقلاً مدبراً فيها. لم يقتل من أجلهم وإنما اغتيل من أجل جندي أميركي قتل في قاعدة عسكرية

لم يأخذ ترامب بعين الاعتبار أن وقف الخدمات المجانية لجيشه في المنطقة، هو قرار لا يجب أن يطبق على المدنيين. لا يقدر السوريون في إدلب على دفع الملايين للرئيس الأميركي من أجل توفير الحماية لهم. وإن لم يفعل ترامب ذلك مجاناً فلن يتجرأ أحد على فعل ذلك مهما كانت دوافعه.

نفاق واشنطن في حماية السوريين لم يبدأ من إدلب؛ بل بدأ منذ أن فوضت موسكو وطهران بإدارة أزمتهم قبل سنوات، وجلست هي في صفوف معارضة دمشق. قدمت في ذلك خدمة مزدوجة لنظام بشار الأسد، حيث أطلقت يد حلفائه من جهة، وكبلت يد المعارضة وأصدقائها من جهة أخرى.

تدين الحرب في إدلب الولايات المتحدة بقدر ما تدين النظام وحلفاءه. خاض النظام حربه على السوريين منذ البداية بعنوان مكافحة الإرهاب، وخسرت فصائل المعارضة حربها معه لأنها لم تقنع العالم بأنها ليست إرهاباً. لها أخطاؤها الكثيرة في هذا، ولكن ذلك لا يعفي أميركا ودولا عدة من المسؤولية.

العديد من الدول ساهمت في تسليح المعارضة السورية منذ بداية الثورة. كان يمكن لهذا الخيار ألّا يجلب كل هذا الموت إلى البلاد لو لم تسيطر الفصائل المسلحة على المدن. وكان يمكن أيضا لسيطرة الفصائل على المدن أن تنتهي دون ضحايا أو بُعشر أو خمس العدد، لو أنها انتهت بطرق أخرى.

لن يفيد البكاء على الأطلال شيئاً ولن يعيد التمني عقارب الزمن إلى الوراء. الحقيقة أن الجميع ارتكب أخطاءً وخسر رهانات في هذه الحرب. ليس فقط الأطراف المحلية وإنما الدولية أيضاً. ومن دفعوا الثمن نيابة عن الجميع، هم السوريون الذين قُصفوا واعتُقلوا وغرقوا وتشردوا في أصقاع العالم.

لكي نسمي الأشياء بمسمياتها لا بد من تضييق دائرة الأطراف المعنية في معارك إدلب؛ أولئك الذين يتحملون وزرَ ما يجري هناك. ليس فقط من يقصف المدنيين، وإنما أيضاً الذين ينافقون في ادعاء حمايتهم. فهنا يتساوى القاتل والمنافق في الجرم، ويتحمل الاثنان مسؤولية ما يلحق بسكان المدينة.

في قائمة المنافقين تأتي تركيا بعد الولايات المتحدة مباشرة، فهي من تاجر بدماء السوريين لمرات ومرات بحجة الدفاع عنهم ونصرة لقضيتهم. وعندما قتل سليماني الذي نكل بهم، خرجت أنقرة لتقول إن اغتياله تصعيد يهدد استقرار المنطقة، ويزيد من دائرة العنف الذي ستعاني منه جميع الأطراف.

ربما يجب أن يعاني الجميع من العنف كي يعرف أن حماية المدنيين لا يجب أن تخضع للمساومة والابتزاز. وإن كان ترامب يقول اليوم إنه قد قتل سليماني ليمنع الحرب وليس ليشعلها، فالسوريون يصرخون منذ سنوات طويلة، بأن ردع إيران هو ما يجلب السلام للمنطقة وليس مهادنتها ومسايرتها.

موت سيغير معادلات الميدان

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk